سيرة ابن خلدون

قراءة ثانية

بقلم

أ د عبد الرحيم الكردي[1]

**

ابن خلدون شخصية متوهجة وفي الوقت نفسه محيرة ، شغل الناس في حياته وبعد مماته ، فانقسموا بين معجب به شديد الحب له ، وناقم عليه شديد الكراهية له - وهذا شأن العظماء في كل عصر - فمن الناس من رأى أنه فقيه صوفي صادق التقوى [i]، ومنهم من رأى أنه عالم عبقري ومؤسس لعلم جديد ، ومنهم من رأى أنه سياسي انتهازي ومغامر ، ومنهم من رأى أنه زنديق فاسق ينبغي أن يلعن على أعواد المنابر ويجب أن تحرق كتبه ، لذلك قوبلت أفكاره بالقبول والتقدير لدي فريق وبالريبة والشك لدى فريق آخر[ii] ، لكن ابن خلدون رأى نفسه غير ذلك، ولما كانت رؤيته لنفسه أعمق من كل هذه الرؤى فإنه لم يصرح بمعالمها في أسلوب تقريري ، بل رسم ملامحها في صورة فنية ،في سيرة ذاتية، لأن الفن يمكنه التعبير عن دقائق يعجز التعبير التقريري عنها ، لذلك لما سئل تولستوي : ماذا أردت أن تقول في روايتك الحرب والسلام؟ قال : لو أردت أن أقول ذلك لكتبت الرواية مرة أخرى ،ابن خلدون أيضًا لو أراد أن أن يقول لنا ماذا أراد من كتابة سيرته هذه لكتبها مرة أخرى .

ألف ابن خلدون العديد من الكتب والرسائل والقصائد الشعرية[iii] ، لكن الذي أذاع شهرته ثلاثة كتب ، أكبرها حجمًا تاريخه الكبير الذي وضع له عنوانًا طويلًا هو : " كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" وهو كتاب في التاريخ ، يبدأ من نشأة العالم وينتهي في القرن الثامن الهجري، الكتاب الثاني هو المقدمة التي وضعها ابن خلدون لهذا الكتاب السابق ذكره ، وأفردها كتابًا مستقلًا عرف باسم " المقدمة " أو " مقدمة ابن خلدون " وهو أوسع شهرة وأكبر أهمية من الكتاب الأصلي نفسه ، أما الكتاب الثالث فهو سيرته الذاتية التي جعلها في بداية الأمر ذيلًا لكتاب العبر ،ثم جعلها في كتاب مستقل سماه " التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا " واختصره الناس بعد ذلك فأطلقوا عليه " رحلة ابن خلدون ".

هذا الكتاب الأخير هو موضوع بحثنا الآن ، وهو نص سردي رسم فيه ابن خلدون صورة لنفسه ، عن طريق حكاية ما حدث له منذ ميلاده حتى شيخوخته ، أي منذ عام ٧٣٢ هـ حتى

---

[1] أستاذ النقد والأدب العربي الحديث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة قناة السويس - مصر

عام ٨٠٧هـ ، وهو العام السابق لوفاته، مستخدمًا قالب الرحلة ، إذ يذكر أن رحلته بدأت من تونس مسقط رأسه إلى المغرب ثم إلى الأندلس ثم إلى تلمسان ثم إلى المغرب مرة أخرى ثم إلى الأندلس مرة أخرى ثم إلى تونس ثم إلى مصر ومنها إلى الحجاز ثم العودة إلى مصر ثم إلى الشام وأخيرًا إلى مصر،أي أن المساحة المكانية التي دارت فيها أحداث الرحلة تغطي منطقة شاسعة تشمل شمال إفريقيا كله وجزءًا من غرب آسيا بالإضافة إلى شبه جزيرة أيبيريا ، أما المدة الزمانية فتبلغ خمسة وسبعين عامًا، صور ابن خلدون خلال هذه البيئة الزمانية والمكانية ما لقيه في كل بلد من الحفاوة والتكريم أو ما عاناه من الحبس والتنكيل أو المكايد السياسية والمؤامرات والكوارث والمخاطر ، ويذكر في هذا الكتاب من قابله من الملوك والقادة والعلماء وكبار القادة ودهاة الساسة في عصره ، أمثال السلطان أبي عنان والسلطان أبي سالم في المغرب والسلطان برقوق في مصر وتيمور لنك في دمشق ولسان الدين بن الخطيب في غرناطة ، وصور أيضًا ما دار في هذه البيئات من قيام الدول وانهيارها ،وما شهدته من انقلابات سياسية ومعارك عسكرية واغتيالات وخيانات ، ورصد كثيرًا مما كان ينخر في المجتمع المغربي من فوضى وفرقة وتخلف ، وما كان يدور في المجتمع المصري من رخاء مادي وفساد أخلاقي وإداري ، صنع ابن خلدون من هذا الخليط المكاني والزماني والبشري قصة طريفة وشائقة عن طرق اللغة.

بعض المؤرخين يعدونها مجرد وثيقة تاريخية - ومعهم حق - لأنها في نسختها الأخيرة الموثقة تعد آخر عمل يكتبه ابن خلدون قبل موته ، فهي بمثابة التقرير النهائي الذي يفسر التطور التاريخي والروحي لأفكاره ورؤيته للحياة ، كما أنه يفسر لنا كثيرًا من الأحداث التي شهدها في عصره ، وبعض النقاد يعدونها رحلة ، لأنها تعتمد على انتقال الراوي البطل من مكان لآخر ، مثل قصص الرحلات ، لكن طه حسين يرى أن إطلاق اسم الرحلة على هذا العمل ليس دقيقًا ، فابن خلدون لم يصف المدن التي زارها - كما فعل ابن جبير وابن بطوطة - ولم يهتم بالجغرافيًا ، وكل ما كان يعنيه هو تصوير ذاته ، فالكتاب عند طه حسين ليس من أدب الرحلة ، يقول :" لكن شخصية مؤلفي هذه الكتب لم تتخذ فيها إلا دورًا ثانويًا ، فهم لم يقصدوا كتابة ترجمتهم ، وإنما قصدوا أن يصفوا البلاد التي شاهدوها وأخلاقها ونظمها ، فهي من بعض الوجوه إذًا قصص جغرافية ، في حين أن الغرض الحقيقي من رحلة ابن خلدون إنما هو سرد الحوادث التي ملأت فراغ حياته ، بل لسنا نجد في هذا المؤلف أثرًا للوصف الجغرافي ، وإذا كان يقص لنا تاريخ المعارك التي نشبت بين سلاطين تونس والجزائر ومراكش فذلك لكي يبين لنا الدور الذي لعبه فيها "[iv] ، ويرى فريق ثالث أن الكتاب نص أدبي رفيع ، فمحمد عبد الله عنان ومصطفى عبد اللطيف السحرتي يريان أنه تعبير فني جميل عن الخلال النفسية والنزعات الوجدانية ، يقول عنان ويوافقه السحرتي على هذا القول :" هذا التعريف الذي يتركه لنا ابن خلدون عن نفسه وحوادث حياته قطعة فريدة في الأدب العربي ، فهو صورة قوية ممتعة لتلك الشخصية الممتازة الجريئة رسمت في كثير من الحرية والصراحة، حتى إنها لتفصح في كثير من المواطن عن خلال صاحبها النفسية ، وليست هذه الخواص دائماً مما يحمد أو مما تقر الأخلاق الفاضلة، فهناك الكبرياء والزهو والأثرة، وهنالك الطمع وحب التقلب وشغف الدس، وانتهاز الفرص بأي الوسائل، ثم هنالك الجحود ونكران الصنيعة، هذه كلها نلمحها من آن إلى آخر ماثلة في أعمال المؤرخ ومواقفه حسبما يقصها علينا بنفسه ولكن هذه الخلال السيئة لا تبعد كثيرًا عن خواص الشخصية الممتازة"[v].

ونحن هنا سوف ننظر إلى هذا الكتاب من هذه الزاوية ، من الزاوية الأدبية ، سوف ندرسه على أنه ينتمي إلى فن السيرة الذاتية ، لأنه عبارة عن نص سردي يتمحور حول ذات ساردة ، بهدف إلقاء الضوء على هذه الذات بطريقة فنية ، وهذا هو جوهر فن السيرة الذاتية .

مفهوم السيرة الذاتية.

لكن بعض النقاد يرون أن السيرة الذاتية نوع أدبي حديث ، وأنه فن أوربي خالص، لم يظهر إلا في العصر الحديث ،وبالتالي لا يمكن إطلاق وصف سيرة ذاتية على عمل قديم مثل سيرة ابن خلدون، ويعلل هؤلاء النقاد ذلك بأن هذا الفن ثمرة الشعور بالذات والهوية الفردية التي لم تنشأ إلا حديثًا نتيجة لظهور النزعة الإنسانية ، أي النزعة التي ترى الإنسان محورًا للكون وسيدً له , ومن ثم فإن ظهور هذا الفن حسب هذا الفريق يتطلب ثقافة معقدة لا يمكن تخيل وجودها في الشعوب القديمة أو شعوب العالم الثالث في الوقت الحاضر ،لأن هذه الشعوب حسب رأيهم يسيطر عليها الإحساس بالوجود الجمعي الذي يجعل اللغة تنضوي تحت التعبير بالضمير (نحن) وليس الضمير (أنا) ، وهذا الإحساس لا يتيح للفرد التعبير عن ذاته ، ولا يعطيه الحرية للبوح عما يعانيه أو أخطأ فيه ، وحسب هذه الرؤية فإن ما يوجد من سير ذاتية لدى بعض نوابغ هذه الشعوب في العصر الحديث مثل سيرتي غاندي وطه حسين إنما هو ثمرة الاحتكاك بالغرب وتقليد النماذج الرفيعة في الحضارة الأوربية[vi] .

هناك فريق آخر من النقاد ينظر إلى الأمر من زاوية أخلاقية وتربوية ، إذ يرى أنصار هذا الفريق أن السيرة الذاتية ليست إلا سلسلة من الاعترافات بالرذائل ، ويرون أنه فن قديم لكنه ذو سمعة ليست طيبة، لارتباطه في الأذهان بالفضائح وكشف المستور ، ولأن أصحابه في الغالب مصابون بالعقدة النرجسية ، ومتهمون بمحاولة تبرير الأخطاء ، لذلك لم تلق اعترافات روسو قبولًا نقديًا عند صدورها رغم صدقها وأهميتها ، ولذلك أيضًا سخر سيجموند فرويد سنة ١٩٢٩ من فكرة كتابة سيرة ذاتية لحياته واصفًا ذلك العمل بأنه شيء سخيف للغاية ويتطلب ممن يقوم به الكثير من التهور والطيش لكشف خيانات نفسه وفضح المقربين منه ، بل قال : إن مثل هذا العمل مجرد كذب وزيف وخداع[vii] .

وكلا الفريقين يربط ظهور السيرة الذاتية بفكرة الاعترافات في الديانة المسيحية ،كما يرى أنصارهما أن اعترافات روسو والسير والتر سكوت ومن قبلهما اعترافات القس أوغسطينوس هي النماذج المثلى للسيرة الذاتية الخالصة، لاشتمال هذه السير على البوح الصريح بل الفج والمكشوف بالنقائص والأخطاء ، ومن ثم ذهب إدوارد سعيد وستيفن همفريز إلى أن فن السيرة الذاتية نادر جدًا في الأدب العربي[viii]

هذا التصور يحدد مفهوم السيرة الذاتية في نوع واحد فقط هو الاعترافات ، ويحصرها في شكل واحد فقط هو النموذج الأوربي المرتبط بتطوير فكرة الاعتراف الكنسي ، وينسجم مع نظرية المركزية الأوربية التي تحاول أن تفرض النموذج الأوربي باعتباره القاعدة والمعيار الوحيد لكل قضية ثقافية أو معرفية ، ولو ارتضينا هذا التعريف الضيق وطبقناه على الأدب العربي فإننا فعلًا سوف نجد ندرة في أدب الاعترافات في الثقافة العربية ، ففي الأدب العربي القديم تراث ضخم من أدبيات الفخر، لكنه يكاد يخلو من فن الاعترافات ، ربما لأن طبيعة العربي جبلت على ستر النقائص والخجل من التصريح بالأخطاء ، أو لأن تجنب المجاهرة

بالزلات الشخصية كان وما يزال أحد علامات التقوى لدى المسلم أوعلامات الفتوة أو الفروسية لدى العربي .

لكننا إذا نظرنا إلى نماذج السير التي كتبها أدباء وعلماء وفنانون عالميون عن أنفسهم ، وعدها النقاد نماذج رفيعة للسيرة الذاتية فإننا سوف نستنبط مفهومها أوسع من ذلك بكثير ، سوف نجد أن السيرة الذاتية فن قديم لا يستأثر به شعب دون شعب ولا حضارة دون حضارة ، فن جميل عرفه المصريون القدماء والإغريق والرومان والصينيون والهنود والعرب وغيرهم من الشعوب ، وهو يشمل الاعترافات والمذكرات الشخصية والتراجم الذاتية واليوميات والتجليات الصوفية والرحلات الباطنية ، لذلك يعرفه مدلسون بأنه " نوع أدبي أو شكل أدبي يكشف حياة المؤلف الحقيقية دون الأقنعة الواقية لاستعمال فكرة الخيال كما في القصة والرواية " [ix] هو حسب مدلسون نوع هجين يجمع بين سحرالقصة و صدق التاريخ بين الحقيقة والخيال ، يتحدث فيه المؤلف عن نفسه ويكشف فيه عن شخصيته ،ويسرد الوقائع والأحداث التي حدثت له في شكل قصة ، هذا الفن له في كل ثقافة صور وأشكال خاصة ،وله في كل عصر تقاليد معينة ، بل له عند كل أديب تقنيات خاصة شريطة أن تتحقق فيه صفة الأدبية ، أي أن يكون أدبًا يشبع الحاسة الجمالية عند المتلقين له .

بهذا المفهوم الواسع نجد عشرات السير الذاتية في التراث العربي القديم [x] ، مثل سيرة الإمام الغزالي في المنقذ من الضلال ، وسيرة ابن عربي في كتاب الإسرا إلى المقام الأسرى ،وسيرة السيوطي في التحدث بنعمة الله ، وسيرة ابن خلدون في سيرته التي نتناولها الآن بالدراسة .

لكن السيرة التي كتبها ابن خلدون عن نفسه لها طابع خاص ، لأنها أولًا سيرة أدبية خالصة تكاد تشبه السير الذاتية الحديثة، ولأنه لم يكتف فيها بإبراز الجوانب الإيجابية في حياته كما فعل السيوطي في التحدث بنعمة الله ، ولم يذكر المعلومات بطريقة تقريرية بل استخدم الوقائع الحسية للإيحاء بما يحس به، ولم يغلف صفاته بالتهويمات الروحانية كما فعل ابن عربي ، أو التحليلات الفلسفية كما فعل الغزالي ، بل عرض حياته عرضًا قصصيًا شائقًا بكل ما لها وماعليها عن طريق استخدام قالب مادي هوالرحلة، ولم يجعل هذه السيرة مجرد شذرات فلسفية تأملية كالتي كتبها أبو حيان التوحيدي عن نفسه في كتابي الإمتاع والمؤانسة والصداقة والصديق ، ، بل رسم ابن خلدون في سيرته التي أطلق عليها " التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا صورة لذاته جسم فيها مزاياه الشخصية و نقائصه ، إنجازاته وإخفاقاته بلا خجل أو مواربة في ثوب أدبي بطريقة تشبه السير الذاتية الأوربية في تحررها من الخجل من التحدث عن العيوب والأخطاء الشخصية ، ولذلك يقول طه حسين :"إن ابن خلدون أول كاتب عربي يفرد لحياته وشخصيته كتابًا مستقلًا " و نضيف إلى ذلك أنه أول كاتب عربي يكتب سيرة ذاتية متكاملة من الناحية الفنية ، يمكن دراستها باعتبارها نصًا أدبيًا .[xi]

إن التعامل مع هذا الكتاب على أنه سيرة ذاتية لا ينفي أنه وثيقة تاريخية لحياة ابن خلدون وعصره ، لأنه في الوقت الذي يرصد فيه تاريخ هذه المرحلة يكشف لنا التجربة الروحية والفكرية العميقة التي مر بها ابن خلدون وكانت نقطة تحول حاسمة في حياته والتي كان من ثمرتها كتاب المقدمة ،كما سوف نرى عند تحليلنا لنص الكتاب ، لكن طه حسين يرى أن ابن خلدون لم يكتب سيرته رغبة في التأريخ أو البحث عن الحقيقة، بل كتبها بسبب حبه الشديد

لنفسه ، ورغبة منه في الظهور على رجال الأزهر ، وإيهام الآخرين بعظمته الشخصية ، لأنه - حسب زعمه - رجل أناني معجب بنفسه طموح للسلطة وصولي مخاتل تغلب عليه الأثرة ، لديه شهوة جارفة للصراع والدس ،وأنه رجل نفعي يحاول الوصول إلى هدفه بأي وسيلة مهما تعارضت مع الأخلاق ، ومن ثم فإن الكتاب عبارة عن دعاية سياسية ذكية أو لعبة من ألاعيب ابن خلدون التي دأب عليها طيلة حياته ، ويستدل طه حسين على تضخم ذات ابن خلدون في الكتاب بـ " أنه أول كاتب عربي خصص لتاريخ حياته كتابًا كاملًا "[xii] ، كما يرى أنه يستخدم وسائل دعائية في الإيهام بعظمته ، مثل المبالغة في وصف الحفاوة التي كان يستقبل بها من الملوك والسلاطين أينما حل أو رحل ، ومثل التحدث عن قراءاته وشيوخه.

يقول طه حسين عن ابن خلدون :" ولم يذكر التاريخ الإسلامي قط كاتبًا أشد إكبارًا لنفسه وأوفر شعورًا بقيمته مضحيًا بالدين والأخلاق في سبيل أطماعه الضخمة ، اللهم إلا إذا استثنينا أحد مواطنيه وهو رجل معروف جدًا عاش قبل ابن خلدون بثلاثة قرون ، وهو الوزير الشهير أبو القاسم المغربي[xiii] الذي كان يدس الدسائس في بلاط الفاطميين بالقاهرة والعباسيين في بغداد وحول عدة ملوك آخرين بالشام والعراق"[xiv]

ويرى طه حسين أن ابن خلدون لكي يوهم معاصريه أنه عالم أفاض في الحديث عن تعلمه وأساتذته والكتب التي يدعي أنه درسها في صباه في مختلف العلوم في تونس والمغرب، فابن خلدون - حسب طه حسين - لم يكتف بمجرد الإشارة إلى هؤلاء العلماء بل ترجم لهم ، ولم يكتف بذكر هذه الكتب بل حاول أن يبين محتواها ، في الوقت الذي لم يقل لنا شيئًا عن تربيته الحقيقية ، بل التزم الصمت إزاء حداثته وحياته العائلية ، ويعلل طه حسين هذه الظاهرة بأن ابن خلدون كان يريد أن يسبغ على نفسه صفة الأستاذ فائق الرسوخ في العلم ، يقول :" لا سيما وأنه كتب ترجمة حياته في القاهرة حيث كان من الحتم عليه أن لا يبدو أقل شأنًا من منافسيه أساتذة الأزهر"[xv] بل يرى طه حسين أن ابن خلدون ذكر كتبًا ربما لم يطلع عليها لأنه وصفها بغير صفتها مثل كتاب مختصر ابن الحاجب الذي أدرجه في كتب الفقه بينما هو في أصول الفقه .وكذلك يدعي طه حسين أن ابن خلدون لم يعرف من كتاب الأغاني لأبي الفرج سوى الاسم [xvi].

ويفسر طه حسين هذا السلوك غير السوي في شخصية ابن خلدون تفسيرًا ثقافيًا ، فيقول :" نشأ ابن خلدون في بيئة كانت فيها الفردية الشديدة الضيق تمحو كل روح ديني وكل فكرة وطنية ، سواء في القصور الملكية الفاسدة المنحلة أو بين القبائل المشتتة في إفريقية الشمالية إبان القرن الثامن ، وهي التي ورثت عن أسلافها رغبة شديدة في التسلط ووثقت ثقة مطلقة بكفاياتها ، فجاشت في نفس المؤرخ بأطماع لا حد لها ، كانت جميع الوسائل لتحقيقها مشروعة في نظره ، سواء أقرتها الأخلاق أم لا ، ولذلك أقدم بلا وازع ما على خيانة سادته غير مرة ، وبذر في فاس ما استطاع من الدسائس ، وباع نفسه لأبي سالم ، وتصرف تصرفًا معيبًا مع صديقه حاكم بجاية ، إلى غير ذلك"[xvii]

كما يرى طه حسين أن ابن خلدون يقدم لنا تبريرات غير حقيقية لرحلاته وأفعاله ، ويخفي الدوافع الحقيقية التي غالبًا ما يكمن خلفها شهوة شخصية للصراع والتآمر والدس ، يقول طه حسين عن السبب الذي برر به ابن خلدون مغادرته تونس وسفره إلى فاس في مقتبل حياته :" وقد زعم أنه سافر إليها ليسد حاجته العلمية ، لأن العلماء وكبار الأساتذة غادروا تونس إليها

عقب إخفاق حملة سلطان مراكش على تونس ، على أنه يسوغ لنا أن نرتاب في ذلك التعليل ، وقد يكون ابن خلدون أصرح لو قال إنه رأى ضعف حكومة تونس ومنعة سلطان مراكش فأراد أن يغادر تونس إلى فاس ، فلما أخفقت حملة سيده السلطان أبي إسحاق انتهز فرصة الاضطراب ليعبر الحدود "[xviii]

ويشك طه حسين في تعليل ابن خلدون عودته مرة أخرى إلى تونس بأنه اشتاق إلى مسقط رأسه وأنه أراد الاعتزال للتفرغ لتتميم مؤلفاته ، ويرى طه حسين أنه لم يكن لديه خيار آخر ، يقول : " لم يكن في وسعه أن يعود إلى بلد غير تونس ، إذ أغلقت دونه إفريقيا الوسطى وإسبانيا ومراكش ، فعاد إلى تونس وأحسن سلطانها استقباله ، وتفضل على قوله باستشارته في شؤونه ، على أنه لم يتدخل عندئذٍ في السياسة ، فهل اعتزلها؟ أم هل استغنى السلطان عن خدماته ؟ لا ندري"[xix]

كما يشكك طه حسين في الأسباب التي ذكرها ابن خلدون لمغادرته تونس وسفره إلى مصر، ويرى أن سفره لم يكن لغرض الحج كما يدعي بل لأنه لم يكن ثمة ما يرجوه من البقاء ، ويشكك طه حسين في إحجام ابن خلدون عن الخوض في غمار السياسة في مصر ، ويرى أنه :" لم يكن باستطاعته ذلك"[xx] ، ولأنه " أيقن أنه لا يستطيع دس الدسائس في بلاط مصر" [xxi] كما يشكك فيما ذكره ابن خلدون من أنه كان يقصد إلى رضاء الله فيما يتوخاه من العدل في الأحكام عندما ولي القضاء ، يقول طه حسين :" فهل كان ذلك شغفًا منه بالعدالة أو كان رغبة في التظاهر بالطرافة "[xxii]

إن المتأمل في قراءة طه حسين لهذه السيرة يكتشف أن طه حسين دخل إلى قراءة الكتاب من مدخل لم يرده ابن خلدون ، ولم يتعامل مع السيرة على أنها نص أدبي ، بل على أنها أقوال رجل متهم يخضع للتحقيق في محضر أمام محقق قانوني ، فقد استغل طه حسين اعتراف ابن خلدون بسلبياته واتخذه دليلًا على إدانته ،عملًا بالقول السائد الاعتراف سيد الأدلة ، ولو طبقنا هذا المنطق في قراءة السير الذاتية لوصمنا جميع كتابها بالرذيلة، بما فيهم طه حسين نفسه في سيرته التي سماها الأيام ، وكان الأجدر بطه حسين أن يضيف إلى هذه الصفات صفة أخرى تغير النظرة لابن خلدون ، وهي أن ابن خلدون يتصف بالصدق مع النفس فيما باح به ، ولأنه يمتلك شجاعة الاعتراف بالخطأ وبالمهارة في التصوي .

ثم إن قول طه حسين بأن ابن خلدون كتب سيرته رغبة في الظهور بمظهر العالم الجليل والسياسي المحنك ،فيه نظر ، إذ لو كان ابن خلدون يهدف إلى الظهور والتباهي والإيهام بالعظمة والجدارة - كما يرى طه حسين - لما ذكر عيوبه وأخطاءه ، فالإنسان السوي لا يتباهى بالعيوب .

أما قول طه حسين بأن إفراده سيرته في كتاب مستقل دليل على تضخم شخصيته ،فليس ذلك عيبًا بل ميزة ، وليس دليلًا على تضخم ذاته ، ولو كان كذلك لكان كل كتاب السير الذاتية مصابون بهذا الداء النرجسي، أما مخالفته لكتب الرحالة فأمر طبيعي ، لأن ابن خلدون لم يرد أن يكتب رحلة بل سيرة ، والدليل على ذلك أن الاسم الذي وضعه ابن خلدون في النسخ القديمة يخلو من ذكر كلمة رحلة ، على أي حال فإن قراءة النصوص الأدبية على أنها نوع من

الإعلام السياسي أو المنشورات الدعائية ليست غريبة على طه حسين ، فقد سبق له أن قرأ أشعار الغزل في العصر الأموي من هذا المنظور [xxiii].

على أننا إذا تجاوزنا قراءة طه حسين ونظرنا إلى النص نفسه فإن عدة أسئلة سوف ترد على أذهاننا ، مثل: حقًا لماذا كتب ابن خلدون سيرة حياته ؟ أفعل ذلك ليلفت الانتباه لنفسه بعدما نضب معين ابتكاراته في مجال التاريخ ؟ أم كتبها ليؤرخ لنفسه ؟ إدراكًا منه بأنه جزء من الواقع السياسي لهذه المرحلة التاريخية لا بد أن يسجل ؟ أم كتبها حبًا في كشف الحقيقة ، أي ليكشف كينونة حياته وحقيقتها ويرصد الأحداث التي حدثت فعلًا ؟ أم أنه أراد أن يسجل الصورة التي يتصورها هو لنفسه ، بصرف النظر عن مطابقتها للواقع ؟ أم أنه أراد أن يرسم الصورة التي يريد أن يتصوره الناس عليها ؟ وما هي ملامح الصورة التي رسمها ابن خلدون لنفسه في هذه السيرة ؟ وكيف رسمها ؟هل ما كتبه ابن خلدون في هذا الكتاب يعد علمًا أو تقريرًا عن نفسه تحرى فيه الصدق والتعبيرعن الواقع ، هل يختلف ابن خلدون كاتب السيرة عن ابن خلدون المؤرخ ؟ ، هل يريد التدليس أم يريد مجرد البحث عن الحقيقة ؟ أم أن السيرة مجرد فن وخيال لا يعمد فيه كاتبها - ابن خلدون أو غيره - إلى نقل الواقع بل نقل الصورة التي انطبعت في مخيلتة عن نفسه ، صورته كما صورها بقلمه؟ ، أم أن هذه السيرة مجرد تقنية وصناعة محكمة استخدم فيها ابن خلدون الحيل الفنية لصناعة الصورة التي يريد أن يرسمها في أذهان الآخرين لنفسه ؟ وتتترتب على كل سؤال من الأسئلة السابقة أسئلة أخرى كثيرة ، مثل ما هي الأساليب التي استخدها في كشف الحقية أو رسم الصورة الفنية أو صناعة الصورة أو الإيهام بصدقها ؟ وهل الحقيقة التي أراد كشفها - إن كان هدفه ذلك- هي الحقيقة التاريخية ؟ أي تسجيل ما حدث في الواقع ، ومن ثم يمكن أن يوصف عمله بالصدق عندما يتطابق وصفه مع الواقع ، ويوصف بالكذب إذا خالفه ؟ أم أن الحقيقة التي يسعى لكشفها هي الحقيقة الفلسفية ؟ أي حقيقة الحقيقة - كما يقال - أم الحقيقة الجمالية ؟ .وعلى أي أساس اختارالوقائع والأحداث التي اختارها مما حدث له في حياته ؟ وما الوقائع والأحداث التي أخفاها ؟ ولماذا أطال الحديث عن بعض الوقائع واختصر الحديث عن وقائع أخرى ؟ ومن أي منظور رأى الأشياء والآخرين ورأى نفسه؟ وما نوع العلاقات بينه وبين الناس الذين اتصل بهم ؟ وما هو الأسلوب الذي استخدمه في كتابة السيرة ؟ لكننا نبدأ بالحديث عن ملامح الصورة التي رسمها ابن خلدون لنفسه .

ملامح الصورة

والفارق بين الإنسان كما هو في الواقع المعيش وبين صورته في الفن أو الأدب، كالفارق بين الوجه الحقيقي وبين صورته كما تبدو في المرآة ، فالصورة المنعكسة في المرآة تتلون بلون المرآة ونوعها واستوائها وقربها أو بعدها من الوجه المصور ، فقد تبدو صورة الوجه الواحد في المرايا المختلفة مستوية أو منبعجة أو ومنكسرة ،صافية أومغبرة ،تبعًا لطبيعة المرآة التي تعكسها ، والأمر نفسه يتحقق في اللوحة ، فالصورة في اللوحة تتلون برؤية الفنان ومزاجه وموقفه وثقافته وعمره .

وفي السيرة الذاتية التي يكتبها الإنسان عن نفسة - كما هو الشأن بسيرة ابن خلدون التي نحن بصدد الحديث عنها - تكون المرآة فيها مسلطة على نفسها ، فهي صورة ابن خلدون كما يراها

ابن خلدون نفسه أو كما تخيلها هو لذاته ،فهي تشبه اللوحة الفنية التي يرسمها الفنان لنفسه ، لكن السيرة التي تلبس الثوب الأدبي لا تصور الملامح الخارجية للوجه الإنساني فقط بل تتطرق إلى التعبير عن النوازع النفسية والكوامن الشعورية والروحية والنزعات العاطفية والميول والأهواء عن طريق التشكيل الفني ، وليس عن طريق التصريح ويكون تطور الأحداث فيها ليس مجرد تتابع عبر الزمان ، بل تحولات عميقة في الرؤى والمواقف ، كما أن السيرة الفنية تختلف عن التاريخ ،لأنها تستخدم أسلوب السرد الفني وليس السرد التاريخي الخالص ، فالسرد التاريخي ذو طابع علمي برهاني يفهم فيه المعنى من خلال القرائن ، أما السرد الفني فيدرك فيه المعنى بالحدس والذوق والرؤيا الشعورية،عندئذ تتفجر شاعرية الأشياء ، فالبيوت والشجر والجبال تصبح بيوتًا ناطقة والشجر يصبح شجرًا موحيًا محملًا بالمشاعر والأحاسيس الإنسانية، والأديب يستخدم هذه الأشياء كلها في التعبير ،وقد شبه حازم القرطاجني الفارق بين المعنى الذي يكمن في الأدب والمعنى الذي يكمن في الكلام المعتاد ، بالفارق بين الاستدلال على وجود الماء الموجود في إناء من الفخار ، والاستدلال على وجود الماء الذي يوجد في قارورة من الزجاج ، فالأول لا يرى بل يستدل عليه بالقرائن الذهنية المنطقية ، مثل دلالة رشح الماء من جدار الإناء أو فيضه بعد امتلائه على وجوده ، والاستدلال من انكفاء القدر على عدم وجوده ، أما الماء في القارورة فيتجلى باطنه من ظاهره فهو لا يحتاج إلى أدلة خارج نطاق النظرة المباشرة ، لأن مضمونه مصور في شكله.

بهذا المنظور يمكننا تحليل سيرة ابن خلدون ورحلاته التي سجلها بقلمه على أنها نص أدبي أكثر منه بحثًا تاريخيًا ،لأنه غاص بالمعاني الشعورية فهو لم يكتف بتسجيل الوقائق تسجيلًا موضوعيًا كما فعل في تاريخه ، بل كان ينتقي أحداثًا ويهمل أخرى ، ويطيل الحديث عند مواقف معينة فيحفرها حفرًا ويمر مر الكرام على مواقف أخرى، كما أنه ينظر إلى الأحداث والناس بمنظور فردي خاص مصطبغ بألوان حالته النفسية وعاطفته الذاتية وليس بميزان الموضوعية والاستقصاء ، من ثم كانت سيرته تعبيرًا فنيًا سرديًا عن نفسه ساعة كتابة السيرة ، أكثر منها تقريرًا علميًا عن الأحداث التاريخية التي شهدها في حياته .

من ذلك مثلًا أنه يستخدم تقنية مشهورة في نظرية الشعرية وهي تقنية الانزياح عن الخط المعياري ، فالتقاليد الفنية التي استقرت في كتابة التراجم في البيئة العربية جرت على أن يبدأ كاتب الترجمة بذكر الاسم والنسب ، لكن ابن خلدون ينحرف عن هذا العرف فيبدأ سيرته بالحديث عن الأسرة ، ويطيل في ذكر نسب هذه الأسرة التي ينتمي إليها بشكل لافت ومتجاوز للمعتاد، ويبالغ في ذكر الرفعة والشرف والسيادة الذي كانت عليه الأسرة منذ الجاهلية وفي العصور الإسلامية في الأندلس مبالغة لافتة، وينزاح مرة أخرى عندما يطلق على أسرته اسم " البيت " وليس الأسرة ، لأن كلمة (البيت) محملة بدلالات ثانوية توحي بالرفعة والشرف ، هذا الانزياح عن الخط المعياري المعتاد يؤدي وظيفتين في وقت واحد ، الوظيفة الأولى بنائية وهي أنها تقدم الأسباب المادية والمبررات النفسية التي جعلت ابن خلدون يسعى إلى السلطة ، فمن الطبيعي أن كل صاحب مجد زائل لا بد أن تكون لديه رغبة جارفة في استعادة هذا المجد ، وبخاصة إذا كان يعي أنه من الذكاء والحنكة والعلم الذي يؤهله لذلك ، الوظيفة الثانية التي يؤديها هذا الانزياح وظيفة فنية سردية، فهي تقوم بوظيفة التمهيد لصناعة البطل في السير الشعبية ، فولادة البطل في السيرة الشعبية لا بد أن ترتبط بالمجد الزائل والاتصال بالأنساب

الشريفة وابن خلدون ربط نسبه بأقيال اليمن وبصحبة النبي صلى الله عليه وسلم ، هذا نموذج من نماذج بلاغة السرد التي أهلت عمل ابن خلدون كي يكون نصًا أدبيًا ، وليس كما ادعى طه حسين أنه نوع من الانتفاخ وتضخم الذات .

ومن ذلك أيضًا الإطالة في تفاصيل اللقاء بالعلماء الذين أخذ عنهم ، والاستطراد في ذكر الكتب التي قرأها عليهم وتفصيل محتوياتها العلمية ، إلى درجة أن الحجم الذي افرده لذكر العلم في الكتاب يكاد يساوي حجم القدر الذي خصصه للحديث عن الانغماس في المؤامرات والدسائس والمؤامرات والتقلبات السياسية ، هذا الإجراء - حتى لو لم يكن يقصده ابن خلدون - يشف عن صراع داخلي شعوري في نفس ابن خلدون في هذه المرحلة ، ذلك الصراع الداخلي الحاد بين عنصرين متناقضين في نفس ابن خلدون ، العنصر الأول ينزع به نحو العلم والزهد والتصوف والخلوة بل الانقطاع لطلب العلم والبعد عن مطالب الدنيا ،والعنصر الثاني ينزع به نحو المجد الدنيوي والرئاسة والاشتغال بالسياسة وتدبير الحكم ، عنصران متساويان في الشدة مختلفان في الاتجاه ، ففي الواقع المعيش جرفت الدنيا ابن خلدون فسخر جسده وعقله في خدمة الملوك والأمراء في المغرب والأندلس، راضعًا من ثديي السلطة هنا وهناك ، متملقًا كل من يملكها ، وفي الوقت نفسه متلقيًا طعنات الحاسدين والمتآمرين وطلاب الدنيا ، فارًا يجسده من بلاط طاغية إلى بلاط طاغية آخر ،كأنه فراشة محلقة حول كل مصباح ، فحيثما وجدت غلبة السلطان وجدت ابن خلدون ، ووجدت حوله أصحاب الدسائس والمؤامرات يتبعونه كظله ، فما يكاد ينجو من مأزق يحاك له حتى يقع في مأزق آخر كأنه يتقافز فوق رؤوس الثعابين ، وفي الوقت نفسه كانت روحه تهفو إلى أن يعيش للآخرة وطلب العلم ،وأمله أن يعيش حياة المتصوفة كما كان والده وشيخ طريقته، لكن في كل موقف يحتدم فيه الصراع في نفسه بين السياسة والزهد ، ويتطلب الأمر منه اتخاذ موقف حازم ، كانت السياسة دائمًا تغلب الزهد ، لذلك نجد ابن خلدون يبرر هذا الموقف بتصوير نفسه في صورة الضحية المغلوب على أمره ، المضطر إلى الانغماس في السياسة ومشاغل الدنيا رغم أنفه ، لذلك نجد أسلوبه زاخرًا بعبارت لا تصدر إلا من أفواه المأسورين أو المضطرين مثل قوله عن منع السلاطين الذين يستضيفونه من مغادرة بلادهم :" وطلبت منه الانصراف إلى بلدي فأبى علي" [xxiv] " فطلبت الرحلة إلى بلدي بإفريقية ، وكان بنو عبد الواد قد راجعوا ملكهم بتلمسان والمغرب الأوسط فمنعني من ذلك"[xxv] حتى أذن لي في الانطلاق "[xxvi] " واعتقلني نحو سنتين إلى أن هلك"[xxvii] أو عبارات تنم عن التلهف على ترك الدنيا والتفرغ للعلم مع عدم القدرة والاضطرار ، مثل قوله :" ثم أطلقني من الغد ، فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين ونزلت بجواره مؤثرًا للتخلي والانقطاع للعلم لو تركت له "[xxviii] ، فعبارة " لو تركت له" توحي بالشعور من جانب ابن خلدون بفقدان ترف الاختيار بين السياسة والزهد ، وأنه يتمنى أن يكون زاهدًا لكن الظروف الخارجة عن إرادته هي التي تمنعه من ذلك ، وأحيانًا يعترف بأن شهوة السلطة والرغبة في القرب منها أقوى من أن تقاوم ، فيقول عن نفسه في هذه المرحلة مبينًا أنه كلما وصل إلى درجة من الاقتراب من السلطة وجد نفسه تتطلع إلى ما هو أعلى منها:" يسمو بطغيان الشباب أرفع مما كان عليه".

لكن هل كان ابن خلدون حقًا لا يستطيع التزهد وتطليق الدنيا والتفرغ للعلم؟ هل كان الملوك هم السبب الحقيقي في ذلك ؟ إن من يقرأ هذه السيرة بتدبر يمكنه التعرف على إشارات خفية تثبت أن ابن خلدون لم يستطع ذلك حقًا ، ولكن ليس لأن الملوك والأمراء هم الذين منعوه من التفرغ

للآخرة ، فقد كان يمكنه الانزواء عن الناس في أحد المساجد أو دور التصوف ، أو يدعي الجنون كما فعل الحسن بن الهيثم في بلاط الحاكم بأمر الله،بل إنه لم يفعل ذلك لأن الدوافع الداخلية في نفس ابن خلدون نحو المشاركة في السياسة كانت أقوى من أن تقاوم ،فالرجل معتد بعلمه وخبرته في السياسة ،وهومحمل بتراث أسرته في الرئاسة والسلطة ، ويريد أن يسترد هذا المجد المِسلوب ، ويرى نفسه أحق من غيره ، وهو بطبعه إيجابي لا يستطيع السكوت ولا يتحمل خمول الذكر، والدليل على ذلك أن لحظات السعادة التي يظهر فيها ابتهاجه هي اللحظات التي يصور فيها اقترابه من السلطة وتوليه المناصب الرفيعة ،ودخوله في بلاط السلاطين ، وأن لحظات التكدر والحزن هي اللحظات التي يعزل فيها من المناصب ،ومن الأدلة على قوة الدوافع الدنيوية في نفسه أنه كثيرًا ما كان يتبرج أمام السلاطين بغزارة علمه ، عارضًا خدماته وخبراته ومعارفه لمساعدة هذا السلطان الأقوى أو ذاك في تثبيت ملكه أو استيلائة على الممالك في غزواته أو حل مشكلاته السياسية .

ومن التقنيات التي استخدمها ابن خلدون ما يسمى في بلاغة السرد الحديثة بالوصف المنظوري ، وتقوم هذا التقنية على إدراك الأشياء والأحداث من زاوية خاصة تجعل هذه الأشياء نفسها تقول ، أو توحي ، فالرؤية المتفائلة ترى نصف الكوب الممتلئ ، أما الرؤية المتشائمة فلا ترى إلا نصفه الفارغ ،وسيرة ابن خلدون هنا كما صورها بقلمه سلسلة من الكوارث ، كل حلقة من حلقاتها تنتهي بكارثة على المستوى العام وعلى المستوى الشخصي، وغالبًا ما تنتهي هذه الكارثة بهروب ابن خلدون وليس بالمواجهه ، ثم تبدأ حلقة أخرى في مكان آخر تنتهي بكارثة يتلوها هروب، وهكذا ،فالمرحلة الأولى من مراحل حياته انتهت بثورة العرب على السلطان في القيروان والطاعون الجارف الذي قضى على والديه وجمع من أشياخه وانتهت هذه المرحلة بخروجه من تونس، والمرحلة الثانية في خدمة ابن تافراكين انتهت بهزيمته ، وتعرض حياة ابن خلدون للموت ثم نجاته وهروبه إلى فاس، وفي المرحلة الثالة التي كانت في بلاط أبي عنان في فاس انتهت بسجن ابن خلدون ، وهكذا .

هذا ما يفسر لنا جو الحزن الشديد الذي صبغ أسلوب هذه السيرة من أولها إلى آخرها ، فهي - بخلاف ما ذهب إليه طه حسين - عبارة عن مرثية للذات عن طريق السرد ، موجات متوالية من المقاطع الحكائية التي تشبه العديد في المآتم والتي يتوالى فيها ذكر المصائب ،صور فيها ابن خلدون شعوره بالحزن على ضياع ثمرة جهده ، أكثر من الندم على الانغماس في أمور الدنيا ،وأبلغ تعبير يكشف عن حزنه العميق أنه عندما يذكر المواقف المؤلمة جدًا فإنه يمر عليها مرورًا سريعًا ، فهو عندما يتحدث موت والديه لا يقول إلا " وطوي البساط " وعندما يتحدث عن غرق أسرته وأمواله في البحر يعبر عنه بجملة واحده أيضًا ، وكأني به لا يستطيع أن يذكر ما أحس به ، وهذه هي طريقته في التعبير عن لحظات الألم ، فلا يصف لنا كيف قضى سنوات سجنه ، ولا يطيل عند ذكر محنة صديقه ابن الخطيب ، فالسكوت في هذه المواطن أبلغ من الكلام .

على أن هناك ملمحًا بلاغيًا سرديًا دقيقًا يتعلق باعترافات ابن خلدون ، فابن خلدون في سيرته هذه يعترف بكثير من الأشياء التي أخذت عليه ، والتي استخدمها طه حسين في وصفه بالانتهازية السياسية ، مثل اعترافه بتدبير بعض المؤامرات في بلاط أبي عنان ، واعترافه بمساعدة أبي سالم على الاستيلاء على السلطة ، ومثل تصريحه بأنه قبل يد تيمور الأعرج لينقذ

دمشق من الإبادة ، وأنه كتب له رسالة عن بلاد المغرب ، مع علمه بأن هذا الطاغية ربما يستخدمها في غزو هذه البلاد .

لكن القارئ لهذه الاعترافات يلاحظ أنها كلها تختص بالعلاقة بالسلطات السياسية ، وليس من بينها اعتراف واحد يتعلق بفضيحة أخلاقية أو أسرار جنسية أو غير ذلك من الأسرار، كما أن الذي يمعن النظر في ملابسات هذه الاعترافات وطريقة عرضها ويربطها بالصورة التي رسمها ابن خلدون لنفسه وللسلطات السياسية في عصره يدرك أن ابن خلدون كان يرى في نفسه الرجل الذكي بين حكام أغبياء مستبدين وظلمه وغير جديرين بالكراسي التي يجلسون عليها ، وأن بإمكانه عن طريق ذكائه وخبرته أن يستغل قربه من هؤلاء السلاطين في نشر العدل والقضاء على الظلم ، وذلك بأن يكون السيف الذي يسلطه السلطان على رقاب الظلمة والمفسدين وقمعهم ، أو أن يكون المستشار المخلص الذي يعمل ما في وسعه لإقرار العدل ، فإذا سنحت الفرصة للتخلص من هذا الحاكم الظالم فلا بأس بها ، لأن هذا السلطان نفسه فاسد ومغتصب للسلطة ، ولذلك فإننا نشعر بروح من السخرية المبطنة ، عندما نقرأ ما يذكره عن تقبيله يد تيمور لنك وتقديم الهدايا له وكتابة كتاب له ، ونشعر بجو من الخبث الذكي عند اعترافه بعلاقته بالأمير محمد صاحب بجاية و تآمره معه على أبي عنان ، وكأني بابن خلدون يقول وماذا في التآمر على هذا الأمير المتآمر الذي انقلب على والده وخلعه من السلطة .

إن هذا الاحساس المعقد الدقيق الذي صوره ابن خلدون في سيرته هو صراع نفسي بين شهوة السلطة وتأنيب الضمير إنها الأزمة النفسية الحادة التي لا توجد إلا في صدور العلماء والمفكرين الذين يعملون في خدمة السلاطين المستبدين الجهلاء غير الجديرين بالسلطة ، أيًا كان زمانهم ومكانهم .

هناك تقنية أخرى استخدمها ابن خلدون ، وهي تقنية شائعة في كل سرد ، وتعتمد هذه التقنية على وصف البيئات المكانية والبشرية والثقافية المصاحبة لمجريات الأحداث في تونس والمغرب والأندلس ومصر، وعلاقة الراوي والشخصيات بهذه البيئة ، هذه العلاقة تشف عن ملامح الصورة التي رسمها ابن خلدون لنفسه ،وابن خلدون لا يكتفي بوصف هذه البيئات فقط بل يسجلها من خلال علاقته بها، فعندما يروى لنا تاريخ أسرته في بداية الكتاب تظهر لنا بوضوح شخصية المورخ صاحب العقل النقدي ، لأنه لا يذكر التاريخ فقط ، بل يوثق مصادره ولا يسلم بما ورد في هذه المصادر بل ينقده ، وعندما يتحدث عن لقاءاته بالسلاطين لا يصف فقط ما يدور بينهم من أحاديث بل يكشف عن رأيه الذي تظهر فيه شخصية الخبير المحنك والسياسي القدير ، وعندما يتحدث عن مجتمع القاهرة تظهر شخصية القاضي الفطن فهو يرصد فساد القضاة والموظفين ، وشيوع المحسوبية والرشوة مصحوبة بالإدانة .

هناك شيء آخر يتعلق بالتقنية السابقة ، وهي أن قراءة هذه الصورة التي رسمها ابن خلدون عن نفسه في هذا الكتاب لا تفهم حق الفهم إلا إذا عرفت الصورة المشوهة التي رسمها معاصروه له ، فابن خلدون كان محاطًا بالأعداء والحاقدين في كل مكان يحل فيه ، ولذلك حرصوا على تشويه سمعته والحط من قدره ووصفه بأشياء لا تليق بمثله ، من ثم أصبحت هذه السيرة التي كتبها هو بمثابة الرد ، واقترنت بنيتها وكذلك تلقيها به .

إن هذه التقنيات تكشف لنا بوضوح أن كل جزئية من جزئيات العالم القصصي الذي رسمه ابن خلدون في كتابه تقوم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بوظيفة ما في رشم شخصيته ، وبذلك تكون هذه الشخصية هي محور الكتاب ، ومع ذلك فإن هذه الوحدة البنيوية القائمة على مركزية الذات الساردة وتمحور البناء الفني والدلالي حول صورة هذه الذات لا تؤدي إلى انغلاق النص ، بل هناك خيوط هنا وهناك قابلة لمختلف الأسئلة والتأويلات مثل :هل كان هناك اتفاق بين السطان برقوق وبين ابن خلدون قبل قدومه إلى مصر سنة ٧٨٤هـ وقبل تغلب برقوق على العرش، يشبه ذلك الاتفاق الذي اتهم ابن خلدون بأنه عقده مع سلطان بجاية الأمير محمد عندما كانا معًا في فاس ؟ فقد وصل ابن خلدون إلى الإسكندرية بعد تولي برقوق بعشر ليال فقط ، وطريقة استقبال برقوق له وثقته فيه وتوليته المناصب المهمة في الدولة بعد لقائه مباشرة ، واستعانته به في القضاء على فساد الأمراء وإصلاح شؤون الحكم توحي بأن علاقة سابقة كانت بينهما أو مراسلات ، وابن خلدون نفسه يصرح بأنه كان يعلم أن برقوق سوف يستولي على الحكم قبل أن يغادر تونس، يقول :" وكنا على ترقب ذلك (أي ترقب تغلب برقوق على الملك) لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك"[xxix]

<u>بناء النص ، بناء الذات.</u>

إذا أردنا أن ندرس البناء النصي لسيرة ابن خلدون ونوازنه ببناء صورته فلا بد أن ننظر إلى هذا النص باعتباره جزءًا من نص أكبر يشمل المقدمة وكتاب العبر ثم التعريف ، ثم ننظر إلى صورة حياة ابن خلدون كما تبدو في الكتاب على أنها تنقسم ثلاثة أقسام ، القسم الأول يبدأ من مولده حتى عزلته بعد عودته إلى تونس،هذه المرحلة الأولى حافلة بالانغماس في السياسة والطموح والاغترار بالدنيا والتعلق بآمال المناصب ، وممارسة المكائد والاصطلاء بنارها ، وتنتهي هذه المرحلة بحادثة كان لها أثر حاسم في تغير مسار حياة ابن خلدون ، هذه الحادثة هي ما جرى لصديقه وشبيهه لسان الدين بن الخطيب سنة ٧٧٦هـ ، ففي هذه الفترة التفت حبال المكايد السياسية التي فتلها كل من ابن الخطيب وابن خلدون حول رقبتيهما ، فأفلت ابن خلدون منها بأعجوبة ، وراح ضحيتها لسان الدين بن الخطيب ، إذ أفتي بعض فقهاء السلطان في المغرب بزندقه ابن الخطيب وكفره ، فقتل وأحرقت جثته ، وكان يمكن أن يلقى ابن خلدون المصير نفسه ، لأن سلطان فاس رأى الفرصة سانحة للتخلص منه أيضًا فطلب من ابن الأحمرعندما كان ابن خلدون في غرناطه ، أن يسلمه إليه بحجة أنه كان يسعى لإنقاذ ابن الخطيب ، فرفض ابن الأحمر تسليم ابن خلدون ، واكتفى بالسماح له بالخروج إلى إفريقية .

المرحلة الثانية هي مرحلة العزلة ، وهي أقصر المراحل زمنًا لأن مدتها أربع سنوات فقط ، لكنها أطول المراحل نصًا ، لأنها تشمل كتابي العبر والمقدمة ، في هذه الفترة حاول ابن خلدون أن يعتزل السياسة والناس ، فاختلى بنفسه في بقعة نائية ، استمرت أربع سنوات ،كتب خلالها النص الأول لكتاب العبر وكتاب المقدمة وانتهى من كتابة المقدمة في منتصف سنة ٧٧٩هـ ولم يستغرق في تدوينها كما يشير هو سوى خمسة أشهر ،وقد جاءته أفكارها - كما يقول - بطريقة تشبه الإلهام[xxx] ، ولما كان كتاب العبر بمثابة المادة الخام وكانت المقدمة بمثابة النتيجة فمن المنطقي أن يكون كتاب العبر أولًا وتكون المقدمة هي ثمرته ونتيجته النهائية ، ، وبهذا فإن هذه التجربة تشبه تجربة الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال ، فالغزالي تكشف له زيف الفلسفة

بعد تجربة طويلة ثم جاء الإلهام بأفكار الكتاب أثناء الخلوة ، وابن خلدون تكشفت له حقيقة الحياة السياسية والاجتماعية بعد تجربة وبعد خلوة مشابهة .

ثم تأتي المرحلة الثالثة ، وهي تبدأ منذ هجرته إلى مصر ، في هذه المرحلة يكاد يختفي فيها ابن خلدون السياسي ، ويظهر ابن خلدون الفقيه والقاضي والمتصوف ، يقول محمد عبد الله عنان عن هذه المرحلة :" هذه الحياة المضطربة العاصفة استبدلها المؤرخ في مصر بحياة أكثر هدوءًا ودعة ، وفي مصر يعيش ابن خلدون شخصية عادية ، لا علاقة لها بشؤون الدولة العليا ، بعد أن لبثت بالمغرب ربع قرن ..يتجرد من ثوب السياسي المغامر ليتشح بثوب العالم المقتدر " [xxxi] أما ذهاب ابن خلدون لملاقاة تيمور لكنك فلم تكن للمشاركة في السياسة أو المشورة ، بل للتبرك به وبمن معه من الصوفية والفقهاء .

وبذلك تكون سيرة ابن خلدون ذات بنية مثلثة مثل كثير من السير الذاتية العالمية ، تبدأ بالصعود في مدارج التوثب والطموح والمغامرة ، ثم الوصول إلى الذروة ولحظة الانكشاف أو التوبة ، ثم الهبوط في ظلال من حياة الطهر والعدل والعفاف والتقوى والسلام، وهي نفسها نظرية ابن خلدون المثلثة في صعود وهبوط الأفراد والدول ، هذه السيرة بهذا الشكل تجربة إنسانية متكاملة وبنية سردية تشمل العناصر الدرامية الثلاثة للحدث كما وصفه أرسطو .

<u>البنية الإيقاعية .</u>

وهنا ينشأ نوع من التوازي بين مفهومين للرحلة ، الأول مادي يتعلق بالانتقال المكاني من تونس إلى فاس ثم إلى غرناطة ثم إلى تونس ومصر ، والثاني روحي يختص بالانتقال من الانغماس في المادي والسياسي إلى المعرفي والعلمي والروحي. وهذا التوازي إلى جانب توازيات أخرى تتعلق بتكرار النجاح والفشل ، والسكون والحركة ، واللقاء والفراق ، تشكل البنية الإيقاعية في النص الخلدوني .

لكن أوضح توازٍ في الكتاب هو ذلك الذي يقع بين النص والعنوان، فالعنوان يلخص مضمون الكتاب المتمثل في التعريف بابن خلدون ، وشكله المتمثل في هيكل الرحلة ، بالإضافة إلى ذلك فإن هذا التوازي ليس توازيًا سكونيًا ، بل متغيرًا ونامياً ، فالمتتبع لتاريخ الكتاب يدرك أن نص الكتاب لم يتخذ الصورة التي هو عليها الآن إلا في آخر حياة ابن خلدون ، فابن خلدون وضع هذا الكتاب أول مرة وهو في تونس قبل سفره إلى مصر ، والدليل على ذلك أن النسخة التي أهداها ابن خلدون إلى سلطان تونس غير التي أهداها إلى السلطان برقوق في مصر ، فقد كان قد وضع له في النسخة القديمة عنوانًا يرتبط بكتاب العبر ، وهو" التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب " فلما سافر ابن خلدون إلى مصر وأضاف للكتاب ما لاقاه في رحلاته في مصر والحجاز والشام ، عدل اسم الكتاب ، حذف من العنوان اسم الإشارة (هذا) وأضاف إليه عبارة :" ورحلته غربًا وشرقًا " فأصبح العنوان الجديد هو " التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غربًا وشرقًا " وبهذا نرى العنوان مكون من جملتين متوازيتين: الجملة الأولى " التعريف بابن خلدون " ، الجملة الثانية " رحلته غربًا وشرقًا" ويربط بين الجملتين بحرف الواو .

الجملة الأولى تشير صراحة إلى الهدف من الكتاب ، وهو الكشف عن هذا الإنسان الملقب ابن خلدون ، وتلمح ضمنًا أو عن طريق "الإيماء" - حسب اصطلاح الأصوليين - إلى الموضوعية وعدم التحيز فقد عدل عن استخدام ضمير المتكلم (أنا) إلى الاسم الظاهر " ابن خلدون " كما تشير العبارة إلى معنى الرغبة في التواصل مع الآخرين، عن طريق استخدام صيغة المصدر الرباعي (التعريف) وليس (التعرف) إذ كان يمكنه أن يكتفي بقوله " ابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا " .

أما الجملة الأخرى " رحلته غربًا وشرقًا" فتشير إلى الأداة أو القالب الذي سوف يستخدمه في التعريف بنفسه ، وهو قالب الرحلة ، وتلمح العبارة ضمنًا إلى أمور أخرى مثل ترتيب الكلام الذي يدل على أن رحلته غربًا أسبق من رحلته للشرق ،كما أن استخدامه الظرفين المتقابلين ، (غربًا/ شرقًا) بدلًا من اسمي المكان (المغرب / المشرق) يومئ إلى اتساع مجال الرحلة لتشمل كل الجهات ، شمالًا وجنوبًا ،وليس إلى جهتين فقط ، وذلك مثل قولنا :"ليلًا ونهارًا " وقول الله تعالى :" سرًا وعلانية ".

وبهذا فإن الواو بين الجملتين من قبيل عطف العام على الخاص ، لأن التعريف عام يمكن أن يكون بأساليب كثيرة ، منها الرحلة وغير الرحلة ، ولكن استخدام قالب الرحلة هو الذي جعل أسلوب ابن خلدون في هذا الكتاب مختلفًا عن أسلوبه في كتاب العبر ، ولعل هذا هو الذي جعل ابن خلدون ، يضيف الجملة الثانية للعنوان، ويغير العنوان .وبهذا نرى أن نص الكتاب قد تطور بالتوازي مع تطور عنوانه وفي الوقت نفسه بالتوازي مع تطور شخصية ابن خلدون ، ومن الطريف أن عنوان الكتاب أخذ يتطور حتى بعد موت ابن خلدون ، إذ أصبح يسمى حينًا " رحلة ابن خلدون حينًا وأحيانًا أخرى " التعريف بابن خلدون " .

المستوى اللغوي .

عرف أسلوب ابن خلدون بأنه لا يهتم بالسجع أو المحسنات البديعية ، فهو ينتمي إلى مدرسة ابن المقفع بخلاف صديقه لسان الدين بن الخطيب ، وهو بذلك أكثر ملاءمة لأسلوب السرد ، ولذلك كان محل إشادة واهتمام من النقاد العرب في مطلع النهضة الحديثة ، وأسلوبه في سرد سيرته سرد أدبي يختلف عن أسلوب السرد التاريخي في كتاب العبر فجمله هنا قصيرة وبسيطة ،وهو يحتوي نوعين من الأساليب ، الأول سرد تقليدي ، تغلب عليه الجمل الفعلية ذات الفعل الماضي ، ويشبه لغة الأمالي ، ذات الطابع الشفوي ، إذ يبدو أن ابن خلدون لم يكتبها بقلمه وإنما كان يمليها إملاءً ، مثل قوله :" فلما كانت وقعة القيروان ، ثار أهل تونس بمن كان عندهم من أشياع السلطان أبي الحسن،فاعتصموا بالقصبة دار الملك ، حيث كان والد السلطان وأهله ، وانتقض عليه ابن تافراكين ، وخرج من القيروان إلى العرب"[xxxii] النوع الثاني إخباري يورد المعلومات مفرغة من الزمان ، والجمل فيها إما اسمية أو فعلية أفعالها ناقصة ، وهي لغة الفقرات الطويلة التي يستطرد فيها ابن خلدون ليجتر ذكرياته القديمة ، لأن ابن خلدون لم يكتبها في صورة يوميات كما توهم بعض الدارسين ، بل أملاها على أنها ذكريات ، والدليل على أن ابن خلدون كان يمليها من حافظته أنه عندما يورد نصوص القصائد الشعرية والرسائل والخطب التي كان قد كتبها أو استقبلها أو ألقاها ، كان يعقب عليها أحيانًا بعبارات تفيد أنه كان يتذكر بعضها وينسى البعض الآخر ، مثل قوله " ومما حضرني الآن من شعره"[xxxiii] أو قوله :" وهي

طويلة نحو مائتي بيت ذهبت عن حفظي "[xxxiv] أو قوله :" وأنشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيرًا لم يحضرني الآن شيء منه "[xxxv] .

---

[i] تولى ابن خلدون في نهاية حياته مشيخة خانقاة البيبرسية الصوفية ، ودفن في مقابر الصوفية ، ويقول طه حسين :" ولشد ما أخطأ الأستاذ فلنت إذ اعتقد أن ابن خلدون كان صادق التقوى" راجع طه حسين "الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون " ص٢٥

[ii] مما يرويه السخاوي أن الحافظ ابا الحسن الهينمي كان يبالغ في الغض من ابن خلدون وكان يلعنه ، كما أن السخاوي كان يرى أن المقريزي كان منخدعًا بابن خلدون ، يقول :" والعجيب أن صاحبنا المقريزي كان يفرط في تعظيم ابن خلدون ، لكونه كان يجزم بصحة نسب بني عبيد - الذين كانوا خلفاء بمصر وشهروا بالفاطميين - إلى علي ، ويخالف غيره في ذلك ويدفع ما نقل عن الأئمة في الطعن في نسبهم ، ويقول إنما كتبوا ذلك مراعاة للخليفة العباسي ، وكان صاحبنا ينتمي إلى الفاطميين ، فأحب ابن خلدون لكونه أثبت نسبهم ، وغفل عن مراد ابن خلدون ، فإنه كان لانحرافه عن آل علي يثبت نسب الفاطميين إليهم ، لما اشتهر من سوء معتقد الفاطميين ، وكون بعضهم نسب إلى الزندقة وادعى الإلهية كالحاكم ، وبعضهم في الغاية من التعصب لمذهب الرفض ، حتى قتل في زمانهم جمع من أهل السنة ،وكان يصرح بسب الصحابة في جوامعهم ومجامعهم ، فإذا كانوا بهذه المثابة وصح أنهم من آل علي حقيقة التصق بآل علي العيب ، وكان ذلك من أسباب النفرة عنهم " [السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ج٤ ص ١٤٧ ، ١٤٨

[iii] ذكر لسان الدين بن الخطيب عددًا من هذه الكتب لكن يبدو أنها أهملت لعدم قيمتها العلمية ، لأن ابن خلدون نفسه لم يشر إليها في سيرته .

[iv] طه حسين ، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص ٢٤

[v] محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ، ص ١٤٠ ، ويكرر الكلام نفسه مصطفى عبد اللطيف السحربي في مجلة الرسالة العدد ٦٣ سنة ١٩٣٤م

[vivi] من أشهر المتعصبين لهذا الرأي غوسدروف وجورج ماي ، راجع كتاب " ترجمة النفس ، السيرة الذاتية في الأدب العربي " تحرير دويت راينولد ، ترجمة سعيد الغانمي ،ص ٣٨

[vii] دانيال مدلسون ، نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية ص ١٣٥

[viii] السيرة الذاتية في الأدب العربي ص ٥٠

[ix] مدلسون ، ص ١٤٢

[x] توفر فريق من الباحثين في إحدى مراكز البحوث في الولايات المتحدة على جمع السير الذاتية في التراث العربي فجمعوا مائة وأربعين سيرة ذاتية تناولوها بالتحليل وجمعها الباحث الأمريكي دويت راينولد في كتاب نشره سنة ٢٠٠١م

[xi] هناك كاتب معاصر لابن خلدون وهو لسان الدين بن الخطيب كتب عن نفسه كتابًا سماه " نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب " سجل فيه رحلته الأخيرة إلى المغرب، لكن لم يصل إلينا منه إلا الجزء الثاني والجزء الثالث .

[xii] [xii] طه حسين ، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص٢٣

[xiii] الوزير المغربي ليس مغربيًا كما توهم طه حسين ، بل هو فارسي الأصل من نسل أسرة بهرام بن المرزبان المشهورة ، ولم يزر المغرب أبدًا ، بل لقب بالمغربي لأن جده كان قد تولى بعض الوظائف في المنطقة الغربية من بغداد ، فغلب عليه اللقب ، راجع وفيات الأعيان ١٧٢/٢

[xiv] طه حسين ص ٢٦

[xv] طه حسين ص ١١

[xvi] أثبت محمد بن تاويت الطنجي محقق كتاب التعريف بابن خلدون أن كتاب الأغاني كان معروفًا في الأندلس في عصر ابن خلدون ، وكانت منه نسخة في مكتبة الناصر ، وأن ابن خلدون نقل منه فقرات كثيرة في تاريخه ، راجع هامش ص ٣٨

[xvii] طه حسين ص ٢٤

[xviii] طه حسين ص ١٣

[xix] طه حسين ص ١٦

[xx] طه حسين ص ١٧

[xxi] طه حسين ص ١٨

[xxii] طه حسين ص ١٨

[xxiii] راجع " التفسير السياسي للأدب عند طه حسين " في كتابنا " السرد ومناهج النقد"

[xxiv] [xxiv] تاريخ ابن خلدون ،ج٧ ص ٤٨٢

[xxv] السابق ج٧ ص ٤٨٨

[xxvi] السابق ج٧ ص ٤٨٩

[xxvii] السبق ج٧ ص٤٩٨

[xxviii] السابق ج٧ ص ٥١٧

[xxix] السابق ج٧ ص ٥٥٩

[xxx] راجع المقدمة

[xxxi] محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ، ص٩٠

[xxxii] ابن خلدون ، رحلة ابن خلدون" ص ٤٥

[xxxiii] السابق ص ٦٠

[xxxiv] السابق ص ٧٣

[xxxv] السابق ص ٨٠

أهم المصادر والراجع

١ - أحمد بن محمد بن إبراهيم ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت

٢- دانيال مدلسون ، نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية ترجمة حمد العيسى ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ٢٠١١

٣ - دويت راينولد ، ترجمة النفس ، السيرة الذاتية في الأدب العربي " تحرير دويت راينولد ، ترجمة سعيد الغانمي ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث سنة ٢٠٠٩

٤ - طه حسين ، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، تحليل ونقد ، ترجمة محمد عبد الله عنان لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٥

٥ - عبد الرحمن بن خلدون ، رحلة ابن خلدون ، تحقيق زتقديم محمد بن تاويت الطنجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت

٦ - محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ط دار الجيل بيروت ، د . ت

٧ - محمد عبد الله بن سعيد الشهير بلسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، مكتبة الخانجي بالقاهرة

٨ - محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ، دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٣ ،

٩ - مجلة الرسالة العدد ٦٣ سنة ١٩٣٤